القيم الجمالية للتقديم والتأخير في شعر أبي الطيب المتنبي

دراسة في أسلوب تقديم المفعول به على الفاعل

م.د.ساهر حسين ناصر كلية التربية / جامعة ذي قار

م.د.ابراهيم صبر محمد كلية الاداب/ جامعة ذي قار

thiqaruni.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

اللغة العربية مميزة عن باقي اللغات السامية بالمرونة في ترتيب عناصر الكلام والجملة داخل السياق في النصوص الإبداعية شعرا ونثرا وهذه المرونة منحت المبدعين حرية في توليد معان ما أمكن _ مع قيود النحو التقعيدي _ الوصول إليها .

وقد أفاد شاعرنا أبو الطيب المتنبي من ظاهرة _ تكاد تكون مميزة في شعره _ وهي تقديم ما حقه التأخير .

واقتصر البحث على الجملة الفعلية ولاسيما تقديم المفعول به على الفاعل في نماذج من شعره التي كان المفعول فيها ظاهرا واعتمدت في هذا البحث على كتب النحو والبلاغة في توطئة بينت بشكل مبسط هذه الظاهرة ،أما في الجانب التطبيقي ، فقد اعتمد البحث على شروح شعر المتنبي الشهيرة كالتبيان في شرح الديوان لأبي البقاء العكبري (ت ٦١٦ هـ)، وباقي الشروح كشرح الواحدي (ت هـ) ، والفتح لابن فورجة (ت هـ) ، والعرف الطيب للشيخ اليازجي ، فضلا عن آراء أبي الفتح عثمان أبن جني (ت٣٩٠ هـ) المبثوثة في اثناء هذه الشروح .

وأفاد البحث في الجانب التطبيقي أيضا من المحاضرات التي ألقاها الدكتور فالح كامل اسكندر على طلبة الدراسات العليا الدكتوراه في قسم اللغة العربية في كلية الآداب جامعة البصرة التي كان لها دور بارز في فهم الجوانب التطبيقية للبلاغة العربية .

والله نسأل جل شأنه أن يجعل هذه الأوراق مما ينتفع بها والحمد لله رب العالمين .

<u>التقديم بين النحويين والبلاغيين :</u>

الجملة العربية تخضع لترتيب ينظَّم تتابع أجزائها في الهيكل الأساسي للبناء اللغوي ومن ثم تستكمل عناصر أخرى يتُّم بها التعبير وتنقل الآراء والانفعالات ، فهناك التركيب الاسمي للجملة وفيه يتقدم المبتدأ ثم يتلوه الخبر ، والتركيب الفعلي للجملة يبدأ بالفعل ثم الفاعل وبعده المفعول به ثم تتوالى الأجزاء الأخرى التي تكون مشتركة في الجملة الاسمية والفعلية كالحال والتمييز وغيرهما .

والحقيقة أنَّ ظاهرة التقديم والتأخير في العربية تناولها النحويون القدماء فكان سيبويه (ت ١٨٠هـ) أول من اعتنى بالتقديم والتأخير وأشار إلى دلالات بلاغية كتقديم الفاعل والمفعول للعناية والاهتمام[١]. ودلالات تتعلق بالصنعة الشعرية كالضرورة الشعرية التي قد يؤدي فيها التقديم والتأخير إلى قبح الكلام احياناً .

وقد تابع النحاة واللغويون سيبويه في آرائه وبعدما أصبحت البلاغة في القرن الخامس الهجري علما مستقلا أولى البلاغيون ظاهرة التقديم والتأخير اهتماما بالغا ولا سيما في عهد الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي درس الظاهرة ـ مستفيداً من معناها النحوي ـ دراسة بلاغية مفصّلة وأعطى فيها كل حالة خصوصيتها المعنوية ، وقدمَّ دراسته على وفق منهج علمي دقيق .

إن دراسة التقديم والتأخير في البلاغة دراسة لأسلوب التركيب لا للتركيب نفسه. على الرغم من وجود التداخل بين بلاغة التركيب وأسلوبه وبديهي أن البلاغة تقيم مع الأسلوب علاقات وطيدة منذ زمن . فقد يتقلص الأسلوب أحيانا حتى لا يعدو أن يكون جزءا من نموذج التواصل البلاغي ، وينفصل أحيانا عن هذا النموذج ويتسع حتى يكاد يمثل البلاغة بعده بلاغة مختزلة . ويصدق مثل هذا القول على العلاقة بين البلاغة والأسلوب من جهة والشعرية من جهة أخرى .فالشعرية البلاغية تركز على المقومات البلاغية وعلى استعمالها ، في حين أن شعرية الأسلوب تعالج أدبية النص بعدها مجموعة من الخصائص الملازمة للغة الجمالية . وقد أبانت هذه الترابطات عبر التاريخ عن تناقضات عدة ، فنظرية الأسلوب الزاهدة في الأثر (التأثير) تتعارض مع البلاغة التي تسعى إلى الإقناع عن طريق الاحتجاج . (٢) الأمر الذي جعل الجرجاني ومن تابعه من البلاغيين يؤكدون على أهمية دراسة الأساليب البلاغية التي يظهر فيها الترابط بين أقسام التركيب، ومن أوضحها أسلوب التقديم والتأخير لما له من أثر في إبراز المعاني التي لا تظهر إلا من خلاله .

إذ يقول الجرجاني: ((هو باب كثير الفوائد جم المحاسن ، واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكانه إلى مكان آخر)) [٣] .

والتقديم عنده على وجهين : تقديم يقال : إنه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه . مثل خبر المبتدأ إذا قدمته عليه والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولنا : منطلق زيد ، وضرب عمرا زيد ومعلوم أن (منطلق) و (عمرا) لم يخرجا عما كانا عليه . [٤]

((وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم الى حكم وتجعل له بابا غير بابه)) [٥] .

أما غرض التقديم فقد صرح به ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) بقوله : ((إن التقديم قد يكون لغرض مراعاة نظم الكلام وذلك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم وإذا أخر المقدم ذهب ذلك الحسن ، وهذا الوجه أبلغ و أوكد من الاختصاص)) [٦] .

وقد ذكر القزويني (ت هـ) أن المفعول به يتقدم على الفاعل ((لأن ذكرهُ أهم والعناية بهِ أتم ، فأنت تقدم المفعول به على الفاعل إذا كان اهتمامك منصبا على من وقع عليه فعل الفاعل لا الفاعل نفسه)).(٧)

وبما أن محور الكلام يرتكز على الرتبة (الترتيب) فلابد من أن يمر هذا البحث في مجالين :

الأول : مجال حرية الرتبة حرية مطلقة .

الثاني : مجال الرتبة غير المحفوظة .

أما الرتبة المحفوظة فهي من اختصاص النحاة لأن هذه الرتبة لو اختلت لاختل التركيب بسببها ومن هنا تكون الرتبة المحفوظة قرينة لفظية تحدد معنى الأبواب المرتبة بحسبها ومن الرتب المحفوظة في التركيب العربي : [٨]

١. أن يتقدم الموصول على الصلة والفعل على الفاعل .
٢. أن يتقدم الموصوف على الصفة .
٣. أن يتأخر البيان عن المبين .
٤. أن يتأخر المعطوف بالنسق عن المعطوف عليه .
٥. أن يتأخر التوكيد عن المؤكد .
٦. أن يتأخر البدل عن المبدل منه .
٧. أن يتأخر التمييز عن الفعل .
٨. صدارة الأدوات في أساليب الشرط والاستفهام والعطف والتخصيص ونحوها .

ويرى الدكتور تمام حسان ان هذه الرتبة (المحفوظة) هي التي دعت النحاة إلى صياغة عبارتهم الشهيرة: ((لا يعمل ما بعدها فيما قبلها)) [٩] .

((ومن الرتب المحفوظة تقدم حرف الجر على المجرور وحرف العطف على المعطوف وأداة الاستثناء على المستثنى وحرف القسم على المقسم به و واو المعية على المفعول معه والمضاف على المستثنى وحرف القسم على المقسم به)) [١٠] .

أما الرتب غير المحفوظة في التركيب فهي رتبة المبتدأ والخبر ورتبة الفاعل والمفعول ورتبة الضمير والعائد عليه ورتبة الفاعل والتمييز بعد نعم ، ورتبة الحال وصاحبه ورتبة المفعول به والفعل [١١] .

((فأما تقديم المفعول به على الفاعل وعلى الفعل إذا كان الفعل متصرفا فجائز واعني بمتصرف أن يقال منه فعل يفعل فهو فاعل كضرب يضرب وهو ضارب وذلك اسم الفاعل الذي يعمل عمل الفعل حكمه حكم الفعل)) [١٢] .

إما إذا خيف التباس احدهما بالآخر أو خفي الإعراب فيهما ولم توجد قرينة تبين الفاعل من المفعول كـ (ضرب موسى عيسى) فيجب حينئذ تقديم الفاعل على المفعول وهذا هو مذهب الجمهور (١٣) .

ويرى ابن جني (ت٣٩٠هـ) أن الأمر في كثرة تقديم المفعول به على الفاعل في القرآن الكريم وفصيح الكلام متعالم غير مستكره فلما كثر وشاع تقديم المفعول به على الفاعل كان الوضع له حتى انه إذا أخر فموضعه التقديم (١٤) .

ويرى السيوطي ت (٩١١ هـ) أن الأصل في المفعول به التاخرعن الفعل والفاعل وقد يقدم على الفاعل جوازا ووجوبا ... وقد يقدم على الفعل جوازا نحو قوله تعالى :((فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة)) (الأعراف /٣٠)وقوله تعالى : ((ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون)) (المائدة /٧٠) . (١٥) و رأي ابن جني السابق يندرج في ضمن الوصف وهو اقرب إلى الواقع من غيره ؛لأن البحث الوصفي يقتضي أن يحكم على صحة القواعد في الاستعمال الذي يتجلى في النصوص الإبداعية وكثرتها على السنة الناطقين بهذه اللغة أو تلك . وقد لخص الدكتور تمام حسان ترتيب عناصر الكلام من حيث الرتبة بحسب الاطراد في الاستعمال على الشكل الآتي : [١٦]

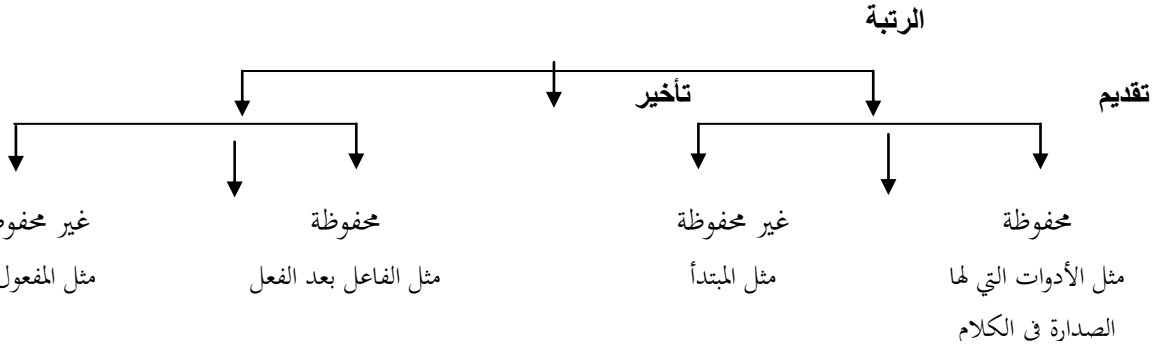

وينقسم المفعول به في التقديم والتأخير تبعا للاطراد على ثلاثة أقسام : (١٧)

١. مفعول يجب تقديمهُ ولا يجوز تأخيره وهو الاستفهام والشرط وضمير النصب بالفعل إذا ظهر الفاعل وكذلك المفعول المنفصل إذا لم يكن مفعولا.
٢. مفعول يجب تأخيره ولا يجوز تقديمه وهو كل مفعول يكون فاعله استفهاماً أو شرطاً أو مقصوراً .
٣. مفعول يجوز تقديمه ، وهو ما عدا ما ذكر .

المقتضيات الصوتية للتقديم والتأخير :

يسهم التقديم والتأخير في بناء النسق الموسيقي للجملة العربية وكل ما اتصل بالواقع الحسي في الكلام من المقتضيات الصوتية والكلام لا يرسله اللسان إلا ليسمع ، ولا تقيده الكتابة إلا ليقرأ فيسمع ، قد تقرأه العين وحدها ولا يجهر به لسان ، ولكنه لا يصل الى المدارك إلا بعد تصور جرسه وذلك لأن الأصوات هي المظاهر الأولى للأحداث اللغوية .

ولم يعد شغف العرب منحصرا في موسيقى الألفاظ وجمال وقعها وحلاوة نغمها بل تعدى شغفهم واهتمامهم إلى العبارات التي تؤلف نغما موسيقيا تطرب له الأذن وتقبل عليه النفس واتبعوا في ذلك سبلا مختلفة وطرقا شتى لتحقيق ما يرجونه .

وقد تنبه النقاد العرب إلى أن الإيقاع الموسيقي قد ينجم عن التقديم والتأخير وأدركوا أن ذلك وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها الفنان ليكسب نصّه روعة وإيقاعا وجاذبية تتحرك لها النفوس ، ويكون تحقيق ذلك بوضع اللفظة في المكان المناسب بحيث تلتحم الكلمة بالأخرى ليكسب الكلام بعضه بعضا قيما جمالية (١٨) .

والذي يطالع شعر المتنبي يجد هذه الظاهرة واضحة جدا في شعره إذ استعمل هذا الباب استعمالات مختلفة ، اخترت منها تقديمه المفعول به على الفاعل في نماذج من شعره كان المفعول به فيها ظاهرا إذ إنه وظف هذه الظاهرة خدمة للمعنى لاسيما اذا ما قورنت بما ورد في شعر شعراء عصره كابي نوّاس وغيره .

النماذج التطبيقية :

قال المتنبي من قصيدة يمدح فيها أبا علي هارون بن عبد العزيز الاوراجي الكاتب وكان يذهب إلى التصوف : (١٩)

أَمِنَ إِزدِيارَكِ في الدُجى الرُقَباءُ
إِذ حَيثُ أَنتِ مِنَ الظَلامِ ضِياءُ
قَلَقُ المَليحَةِ وَهيَ مِسكٌ هَتكُها
وَمَسيرُها في اللَيلِ وَهيَ ذُكاءُ
أَسَفي عَلى أَسَفي الَّذي دَلَّهتِني
عَن عِلمِهِ فَبِهِ عَلَيَّ خَفاءُ
وَشَكِيَّتي فَقدُ السَقامِ لِأَنَّهُ
قَد كانَ لَمّا كانَ لي أَعضاءُ
أَنا صَخرَةُ الوادي إِذا ما زوحِمَت
وَإِذا نَطَقتُ فَإِنَّني الجَوزاءُ
وَإِذا خَفيتُ عَلى الغَبِيِّ فَعاذِرٌ
أَن لا تَراني مُقلَةٌ عَمياءُ
شِيَمُ اللَيالي أَن تُشَكِّكَ ناقَتي
صَدري بِها أَفضى أَمِ البَيداءُ
وَإِذا مُدِحتَ فَلا لِتَكسِبَ رَفعَةً
لِلشاكِرينَ عَلى الإِلَهِ ثَناءُ
وَإِذا مُطِرتَ فَلا لِأَنَّكَ مُجدِبٌ
يُسقى الخَصيبُ وَتُمطَرُ الدَأماءُ
لَم تَحكِ نائِلَكَ السَحابُ وَإِنَّما
حُمَّت بِهِ فَصَبيبُها الرُحَضاءُ
لَم تَلقَ هَذا الوَجهَ شَمسُ نَهارِنا
إِلّا بِوَجهٍ لَيسَ فيهِ حَياءُ

نجد في هذا الحشد من المتقابلات أسلوب التقديم يطفو على سطح النص بقوة في قوله : (امن ازديارك في الدجى الرقباء) فصاغ من بنية المصدر (افتعال) مفعولا يكاد ينفرد به . فدمج بين الحمولات الدلالية للبنية الصرفية (الازديار) وما تخبئ من دقة وترقب في زيارة المحبوبة في وقت الدجى وبين البنية التركيبية من خلال التجاوز في الرتبة للمفعول به الذي قدمه المتنبي ليلفت به نظر المتتبع نحو الاهتمام بموضوع الوصل الذي يستحيل مع هذا الضياء الفاضح ، وكان هذا البيت يغني عن باقي المقدمة او هو بمثابة الدليل للمدوح حتى إذا وصلنا إلى قوله : (لم تحك نائلك السحاب ...) نرى التقديم للمفعول به في هذا البيت - الذي هو الغاية من القصيدة - قد اكسب المعنى رونقا وجمالا وزاد التركيب قوة وتماسكا صوتيا ومعنويا نتيجة تقديم ((نائلك)) على ((السحاب)) فضلا عن تقديم الخبر في قوله ((فصبيبها)) فيكون معناه : إن السحابة لم تحك نائلك لأنها لا تقدر على ذلك لكثرة العطاء المتتابع من لدنك فأنه أكثر من مائها ، وإنما هو عرق حماها لحسدها لك فأورثها الحمى ، فما ترى من مائها إنما هو عرق حماها حسدا لك ، فالذي ينصب من مطرها ما هو إلا عرق (٢٠) .

ولعله أبلغ من قول أبي نوّاس : (٢١)

إِنَّ السَحابَ لَتَستَحيِي إِذا نَظَرَت
إِلى نَداهُ فَقاسَتهُ بِما فيها

بسبب تقديم أبي الطيب ل (العطاء) فالتركيز كان على عطاء الملك لذلك قدم أما أبو نوّاس فقدم السحاب على الممدوح وهذا يجعل السامع لا يلتفت إلى من هو أرفع من السحابة في جودها .

قال أبو الطيب من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة وهي من باب الاعتذار : (٢٢)

أَجابَ دَمعي وَما الداعي سِوى طَلَلِ
نَدَعا فَلَبّاهُ قَبلَ الرَكبِ وَالإِبِلِ
ظَلِلتُ بَينَ أُصَيحابي أُكَفكِفُهُ
وَظَلَّ يَسفَحُ بَينَ العُذرِ وَالعَذَلِ
أَشكو النَوى وَلَهُم مِن عَبرَتي عَجَبٌ
كَذاكَ كُنتُ وَما أَشكو سِوى الكَلَلِ
وَالهَجرُ أَقتَلُ لي مِمّا أُراقِبُهُ
أَنا الغَريقُ فَما خَوفي مِنَ البَلَلِ
قَد ذُقتُ شِدَّةَ أَيّامي وَلَذَّتَها
فَما حَصَلتُ عَلى صابٍ وَلا عَسَلِ

وَقَد أَراني الشَبابُ الروحَ في بَدَني
وَقَد أَراني المَشيبُ الروحَ في بَدَلي
وَقَد طَرَقتُ فَتاةَ الحَيِّ مُرتَدِياً
بِصاحِبٍ غَيرِ عِزهاةٍ وَلا غَزِلِ
فَباتَ بَينَ تَراقينا نُدَفِّئُهُ
وَلَيسَ يَعلَمُ بِالشَكوى وَلا القُبَلِ

استعمل المتنبي التقديم في أسلوب يكاد يكون منفردا به إذ إن الفعل ((أرى)) في قوله ((وقد أراني ...)) يتعدى إلى أكثر من مفعول فقدم المفعول به الأول على الثاني وذكر الفاعل بعده بعد ان كان مستترا وكرر ذلك في الشطر الثاني في أسلوب يدعو للتأمل . إذ وازن أبو الطيب بين المدح والرثاء في مقدمته ليبين مكانة الود بعد الجفاء من باب التعويض عن فقد الثقة فحاور الذات وقصد الآخر ولم يجد سوى تقديم الآخر الحاضر((الشباب)) وعطف الذات ((المشيب)) على الماضي وتجسيده بالمتحدث .

ويعضد ذلك المعنى ما جاء به أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٠ هـ) في تفسيره البيت إذ قال : ((قد ذهب قوم إلى أن المعنى انه كان شابا فلما ذهب الشباب رآه في غيره من الناس)) [٢٣] .

ونقله الواحدي وقال هو كقول الآخر : [٢٤]

من شاب قد مات وهو حيٌّ
يمشي على الأَرض مشي هالك

وقال أبن فورجة (ت هـ) : ((أحسن ما يحمل عليه البدل في هذا البيت الولد لأنه بدل الإنسان، إذ كان يشيب ، أو أن شيخوخة الأب [تجعل من ولده بدلا] وإذا مات ورثه فيكون بدله في ماله)) [٢٥] .

فيكون المعنى : صحبت الشباب مسرورا وأراني الروح يد القوة والجلادة والنهضة في بدني ثم صحبت الشيب مستكرها لصحبته فأراني الروح في بدلي بتغير أحوالي وعجزي عن النهوض والقيام بسرعة كما كنت أيام الشباب وصرت استعين بغيري يساعدني على أحوالي وكأني بهذا قد أراني الروح في بدني ، يريد القوة والنشاط الذي كنت افعله وحدي صرت احتاج فيه إلى مساعد ، وتلخيص المعنى : إن حقيقة أمور الإنسان أيام شبابه ثم تتبدل بالانتقال إلى مشيبه وكبره [٢٦] .

قال أبو الطيب من قصيدة يمدح فيها أبا العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي : [٢٧]

لا تَحسَبوا رَبعَكُم وَلا طَلَلَه
أَوَّلَ حَيٍّ فِراقُكُم قَتَلَه
قَد تَلِفَت قَبلَهُ النُفوسُ بِكُم
وَأَكثَرَت في هَواكُمُ العَذَلَه
لَو سارَ ذاكَ الحَبيبُ عَن فَلَكٍ
ما رَضِيَ الشَمسَ بُرجُهُ بَدَلَه
أَنا اِبنُ مَن بَعضُهُ يَفوقُ أَبا ال
باحِثِ وَالنَجلُ بَعضُ مَن نَجَلَه
وَإِنَّما يَذكُرُ الجُدودَ لَهُم
مَن نَفَروهُ وَأَنفَدوا حِيَلَه
فَخراً لِعَضبٍ أَروحُ مُشتَمِلَه
وَسَمهَرِيٍّ أَروحُ مُعتَقِلَه
أَنا الَّذي بَيَّنَ الإِلَهُ بِهِ ال
أَقدارَ وَالمَرءُ حَيثُما جَعَلَه
جَوهَرَةٌ يَفرَحُ الكِرامُ بِها
وَغُصَّةٌ لا تُسيغُها السَفِلَه

لقد وازن الشاعر في الأبيات : الثالث والرابع والخامس بين تقديم الفاعل على الفعل وهو محل خلاف بين النحاة (٢٨) في قوله ((... من بعضه يفوق أبا الباحث ...)) وتقديمه المفعول على الفاعل في قوله :((... ما رضي الشمس برجه بدله)) وقوله : ((و إنما يذكر الجدود لهم من ...)) . لغاية في نفسه لا تكون إلا من خلال التقديم (وهي إثبات نسبه العلوي) إذ أراد : انه فوق أبي الذي يفتش عن نسبه إلا أن صفة الشعر لإقامة الوزن والمعنى المخصوص دفعته إلى هذا النسق ومثله : [٢٩]

قالت من أ نت على ذكر ، فقلت لها :
أنا التي أنت من أعدائها زعموا

ومعنى قول أبي الطيب : أنا فوق قوم يفتشون عن نسبي ، وأراد بـ (بعض) : الولد لأن الولد بعض الوالد وإنما يذكر الأجداد والآباء للمفاخرين من غلبوا بالفخر ولم يجد حيلة فافتخر بالآباء فيحتاج إلى الفخر بجدوده من لا فخر له ، ولا فضيلة في نفسه ، فيحتاج إلى فضيلة آبائه [٣٠] ، ولأنه أخفى نسبه افتخر بنفسه دون نسبه مما حدا به أن وظف التقديم في توليد انزياحات معنوية يكشفها الإمعان في التركيب وأسلوبه .

قال أبو الطيب في مدح كافور وانشده إياها في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وهي آخر ما انشده ولم يلقه بعدها : [٣١]

مُنىً كُنَّ لي أَنَّ البَياضَ خِضابُ
فَيَخفى بِتَبييضِ القُرونِ شَبابُ
لَيالِيَ عِندَ البيضِ فَوداىَ فِتنَةٌ
وَفَخرٌ وَذاكَ الفَخرُ عِندِيَ عابُ
فَكَيفَ أَذُمُّ اليَومَ ما كُنتُ أَشتَهي
وَأَدعو بِما أَشكوهُ حينَ أُجابُ
وَفي الجِسمِ نَفسٌ لا تَشيبُ بِشَيبِهِ
وَلَو أَنَّ ما في الوَجهِ مِنهُ حِرابُ
وَإِنّي لَنَجمٌ تَهتَدي بِيَ صُحبَتي
إِذا حالَ مِن دونِ النُجومِ سَحابُ
غَنِيٌّ عَنِ الأَوطانِ لا يَستَفِزُّني
إِلى بَلَدٍ سافَرتُ عَنهُ إِيابُ
وَأَصدى فَلا أُبدي إِلى الماءِ حاجَةً
وَلِلشَمسِ فَوقَ اليَعمُلاتِ لُعابُ
وَلِلسِرِّ مِنّي مَوضِعٌ لا يَنالُهُ
نَديمٌ وَلا يُفضي إِلَيهِ شَرابُ
وَلِلخَودِ مِنّي ساعَةٌ ثُمَّ بَينَنا
فَلاةٌ إِلى غَيرِ اللِقاءِ تُجابُ
تَرَكنا لِأَطرافِ القَنا كُلَّ شَهوَةٍ
فَلَيسَ لَنا إِلّا بِهِنَّ لِعابُ
وَبَحرٌ أَبو المِسكِ الخِضَمُّ الَّذي لَهُ
عَلى كُلِّ بَحرٍ زَخرَةٌ وَعُبابُ
وَغالَبَهُ الأَعداءُ ثُمَّ عَنَوا لَهُ
كَما غالَبَت بيضَ السُيوفِ رِقابُ
وَأَكثَرُ ما تَلقى أَبا المِسكِ بِذلَةً

إذا لَم تَصُن إلّا الحَديدَ ثِيابُ
وَأَوسَعُ ما تَلقاهُ صَدراً وَخَلفَةٌ
رِماءٌ وَطَعنٌ وَالأَمامَ ضِرابُ
وَأَنفَذُ ما تَلقاهُ حُكماً إِذا قَضى
قَضاءَ مُلوكُ الأَرضِ مِنهُ غِضابُ
يَقودُ إِلَيهِ طاعَةَ الناسِ فَضلُهُ
وَلَو لَم يَقُدها نائِلٌ وَعِقابُ
أَيا أَسَداً في جِسمِهِ روحُ ضَيغَمٍ
وَكَم أُسُدٍ أَرواحُهُنَّ كِلابُ
وَيا آخِذاً مِن دَهرِهِ حَقَّ نَفسِهِ
وَمِثلُكَ يُعطى حَقَّهُ وَيُهابُ
لَنا عِندَ هَذا الدَهرِ حَقٌّ يَلُطُّهُ
وَقَد قَلَّ إِعتابٌ وَطالَ عِتابُ

إن معنى هذه القصيدة يدور في فلك الوزارة الموعودة التي طمح أبو الطيب لنيلها وقد طال أوانها حتى بان الكبر عليه وشابت قرونه وأراد أن يبين مكانته وهمته في الإمارة بتوظيف أسلوبي أفاد به من ظاهرة التقديم والفصل في قوله : ((وللسر مني موضع ...)) وهو بيت القصيد إذ فصل بين الفاعل والفعل بالجار والمجرور وقدم شبه الجملة التي حلت محل المفعول به في قوله ((... يفضي إليه – شراب)) . ليريد به معنى هو انه يكتم السر فيضعه حيث لا يبلغه القديم ولا يصل إليه الشراب رغم تغلغله في البدن [٣٢] .

وذلك أن الرجل إذا سكر أذاع ما في قلبه من السر فيقول أنا لا أسكر من الخمر على وجه يزول به عقلي وقيل : أراد : أن الخمر لا تصل إلى السر مع أن الخمر تجري مع الإنسان مجرى الدم فتصل إلى كل موضع (٣٣) .

ولعل تقديم السر في بيت أبي الطيب جعله ابلغ من قول الصيرفي : (٣٤)

وَلَمّا شَرِبناها وَدَبَّ دَبيبُها
وَأَطمَعَني الساقي بِوَعدٍ بِهِ يَفي
لَهَوتُ بِحَسوِ الراحِ حَتّى إِذا اِنتَهَت
إِلى مَوضِعِ الأَسرارِ قُلتُ لَها قِفي

إذ قدم الخمرة على السر.

ومثله فعل في قوله : ((.. فلاة – إلى غير اللقاء – تجاب)) ، إذ فصل بين الفاعل والفعل بالجار مع ما أضيف له وقدم الفاعل على الفعل لأنه كان يريد : أنه يصحب المرأة الحسناء الناعمة مدة يسيرة ثم يسافر عنها بقطع الفلاة إلى غيرها لا إليها [٣٥] . والذي يتأمل البيتين الثامن والتاسع يجد فيهما قصد الشاعر في حشد التقابلات المترادفة بين :

١. كتمان السر (موضع ثقة) // موضع ثقة وزراته البقاء (الوصل) // الرحيل (الهجر) .

غير أن التقابل يكاد ينزاح عن نقطة الانتصاف في الثاني إذ إن قوله : ((ثم بيننا)) ترجع إلى مصدر الشطر الثاني ((فلاة إلى غير اللقاء تجاب)) لا الأول مما يجعل الوصل والهجر بالرحيل كتلة واحدة درج الشاعر والآخر على اعتبارها مما يؤدي إلى صعوبة امتلاك الشاعر من قبل امرأة ويعزز هذه الصفة الانزياحية بالحب للخدام والطمع والغرور وضياع الوفاء والوصل .

وقد ذكر الفلاة مثلا على معنى ما يقال بيني وبين فلان مسافة بعيدة في امتناع الوصول إليه (٣٦) .

أما قوله : ((يقود إليه طاعة الناس فضله ..)) الأصل فيه : ((يقود فضله طاعة الناس إليه)) .. فقدم جملة الجار والمجرور وقدم المفعول به على الفاعل لبيان منزلة الممدوح (كافور) ؛ حتى يصبح المعنى : لو لم يطعه الناس رغبة ورهبة لأطاعوه محبة ، بما فيه من الفضل ، لأنهم يطيعونه لاستحقاقه الطاعة لفضله ، لا لرجاء جوده ولا خوف عقابه [٣٧] .

وبالتالي فالتبعية لازمة لزوما واجبا بالفصل أو بالسيف والعقاب كما يوضحها الشطر الثاني : .....

ولو لم يقد – ها – نائل وعقاب

وهو مثل قوله: (٣٨)

رَأَيتُكَ لَو لَم يَقتَضِ الطَعنُ في الوَغى
إِلَيكَ اِنقِياداً لَاِقتَضَتهُ الشَمائِلُ

والمعنى : إن لم تطعك الناس رهبة ، أطاعوك حبا ، فلو لم يقتض الطعن في الحرب انقياد أعدائك لك ، وخضوعهم لأمرك ، وحاولوا مدافعتك ببالغ جهدهم ، ورامو ذلك بظاهر فعلهم ، لاقتضت انقيادهم لك شمائلك ، ولقصرت على ذلك طبائعهم لان جبلتهم توجب خضوعهم لطاعتك ، وأنفسهم تلزم الاعتراف لرياستك.

قال أبو الطيب معاتبا : [٣٩]

بِمَ التَعَلُّلُ لا أَهلٌ وَلا وَطَنٌ
وَلا نَديمٌ وَلا كَأسٌ وَلا سَكَنُ
أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني
ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ
لا تَلقَ دَهرَكَ إِلّا غَيرَ مُكتَرِثٍ
مادامَ يَصحَبُ فيهِ روحَكَ البَدَنُ
فَما يَدومُ سُرورُ ما سُرِرتَ بِهِ
وَلا يَرُدُّ عَلَيكَ الفائِتَ الحَزَنُ
مِمّا أَضَرَّ بِأَهلِ العِشقِ أَنَّهُمُ
هَوُوا وَما عَرَفوا الدُنيا وَما فَطِنوا
تَفنى عُيونُهُمُ دَمعاً وَأَنفُسُهُم
في إِثرِ كُلِّ قَبيحٍ وَجهُهُ حَسَنُ
ما كُلُّ ما يَتَمَنّى المَرءُ يُدرِكُهُ
تَجري الرِياحُ بِما لا تَشتَهي السُفُنُ

عندما نعي أبو الطيب في مجلس سيف الدولة قال هذه القصيدة ولم ينشدها كافورا وبين عتابه ويبدو أن حكمة القول تتجلى في البيتين الثالث والرابع وقد أفاد أبو الطيب من التقديم في صياغة نسيجه الأسلوبي فقدم المفعول به على الفاعل في عجزي البيتين لسببين هما النسق الموسيقي للحفاظ على القافية والوزن والتأكيد على محور المثل وهو ((الروح ، والفائت)) ؛ لأنه كان يقصد : أنه ما دمت حيا فلا تبالي بالزمان وصروفه ونوائبه فإنها تزول وليست دائمة والذي فات فلا عوض منه هو (الروح) . ((وهذا من كلام الحكيم أيام الحياة لا خوف فيها كما أن أيام المصائب لا بقاء فيها)) [٤٠] .

((والسرور وهو الفرح لا يدوم ولابد له من انقضاء وإذا حزنت على فائت تعبت ، ولا يرده عليك حزنك ، وهو من كلام الحكيم : الأيام لا تديم الفرح ولا الترح والأسف على الماضي يضيع العقل)) [٤١] .

وهذا المعنى لا يمكن فهمه بصورة دقيقة كهذه الا من خلال تقديم المخورين اللذين ساقهما ابو الطيب اذ اصبح المعنى بهما اتم اذا ما قدما على الفاعل وليس النسق الموسيقي او الضرورة وحدهما السبب من التقديم .

الخاتمة :

ظاهرة التقديم والتأخير في العربية تكاد تكون ظاهرة بلاغية أسلوبية أكثر مما هي نحوية لان دراسة التقديم والتأخير دراسة لأسلوب التركيب لا للتركيب نفسه على الرغم من وجود بعض الفويرقات في ركام المفاهيم الخاصة بالأسلوب أو البلاغة .

اختلف النحاة في جواز تقديم المفعول به ووجوبه على فاعله وعدوه من باب الضرورات والراجح من أقوالهم ما ذهب إليه ابن جني من انه متعالم غير مستكره في القران الكريم وفصيح الكلام .

إن أبا الطيب قد أفاد من ظاهرة التقديم والتأخير ووظفها في صناعة المعنى ، وقد اقتصر البحث على تقديم المفعول به على الفاعل لأسباب منها صوتية كالتلاؤم مع الوزن الشعري وأخرى معنوية لا تستحصل بعض المعاني إلا من خلال هذا الأسلوب البلاغي بقصدية تامة من المنشئ في حشد المتقابلات عن طريق التقديم والتصرف بالرتبة غير المحفوظة لتوليد الشعرية اللازمة لبناء الأسلوب اللافت أو ما يسمى ببيت القصيد فضلا عن أنواع التقديم الأخرى التي وردت في سياق البحث وتمت الإشارة إليها .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين

الهوامش

(١) ينظر:البلاغة والأسلوبية ، هنريش بليت :١٩ .
(٢) ينظر: الكتاب: ١٢٧/٢ – ١٢٨ .
(٣) دلائل الإعجاز : ٧٦ – ٧٧ .
(٤) ينظر : دلائل الإعجاز : ٧٧ .
(٥) دلائل الإعجاز : ٧٧ .
(٦) المثل السائر : ٢ / ٢٤٠ .
(٧) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني :٢٠٧/١.
(٨) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٠٧ .
(٩) اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٠٦ .
(١٠) ينظر : المصدر السابق / ٢٠٧ .
(١١) الأصول في النحو:لابن السراج:٢٢٨/٢.
(١٢) ينظر شرح ابن عقيل:٩٩/٢.
(١٣) ينظر :الخصائص:٢٩٧/١ .
(١٤) همع الهوامع: ٨/٢.
(١٥) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٠٧ .
(١٦) ينظر : كشف المشكل في النحو :٣٠١،٣٠٠
(١٧) ينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ١٥٢ .
(١٨) ديوانه : ١٣٢/١ .
(١٩) التبيان في شرح الديوان : أبو البقاء العكبري : ١ / ٣٠ – ٣١ ،والعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب للشيخ ناصيف اليازجي : ١٤٨.
(٢٠) ديوانه :
(٢١) ديوانه : ٢ / ١٤٥ .
(٢٢) التبيان : ٧٧/٣٠،وينظر: الموضح للتبريزي ١٤٣/٤.
(٢٣) التبيان : ٣ / ٧٨ .
(٢٤) الفتح على ابي الفتح لابن فورجة: ٢١٨.
(٢٥) ينظر : التبيان : ٣ / ٧٨ .
(٢٦) ديوانه : ٢٧٢ .
(٢٧) ينظر المغني :٦٣٩/١.
(٢٨) التبيان : ٢٦٧/٣٠ .
(٢٩) ينظر : التبيان : ٣ / ٢٦٧ ، والعرف الطيب لليازجي : ٢٧٤.
(٣٠) ديوانه : ١ / ٢٢٤ .
(٣١) ينظر معجز احمد لأبي العلاء المعري:١٥٠/٤.
(٣٢) ينظر : التبيان : ١ / ١٩٢ .
(٣٣) ديوانه:
(٣٤) ينظر : التبيان : ١٩٣/١ .
(٣٥) ينظر :معجز احمد ١٥٠/٤.
(٣٦) ديوانه : ١ / ٢٤٤ .
(٣٧) ديوانه: ٣/ ١٢٢.
(٣٨) ينظر : التبيان : ١/ ١٩٥ .
(٣٩) التبيان : ٤ / ٢٣٤ .
(٤٠) التبيان : ٤ / ٢٣٤ .

المصادر :

١. الأصول في النحو ، لأبي بكر محمد بن سهل السراج النحوي البغدادي (ت ٣١٦هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ١٩٧٣ م.
٢. الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني (ت هـ)، تنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب ، ط٣ ، ١٩٨٩ م .
٣. البلاغة والأسلوبية ، نموذج سيميائي للتحليل ، هنريش بليت ، ترجمة الدكتور محمد العمري ، افريقيا الشرق ط/١ /بيروت لبنان ١٩٩٩م
٤. التبيان في شرح الديوان ، لأبي البقاء الكعبري (ت هـ) ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، أحمد حميد عيسى العامري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٩ م .
http://thiqaruni.org/arabic/53.pdf
٥. الخصائص ، صنعة أبي الفتح عثمان ابن جني(ت ٣٩٠ هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / الطبعة الرابعة/ ١٩٩٠ م.
٦. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت هـ) ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١ م .
٧. ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح البرقوقي (ت هـ) ، تحقيق : عمر فاروق الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، (د. ت) .
٨. ديوان أبي نوّاس ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٦
٩. ديوان الصيرفي ،
١٠. شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك دار الفكر بيروت .
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، الشيخ ناصيف اليازجي ، تقديم الدكتور عمر فاروق الطباع دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت لبنان
http://thiqaruni.org/arabic/78.pdf
الفتح على أبي الفتح تأليف محمد بن احمد بن فورجة المولود ٤٠٠هـ ، تحقيق عبد الكريم الدجيلي، وزارة الإعلام الجمهورية العراقية/ بغداد ١٩٧٤م.
http://thiqaruni.org/arabic/27.pdf
١١. الكتاب ، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، سيبويه ، (ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ، (د.ت).
١٢. كشف المشكل في النحو : لعلي بن سليمان الحيدرة اليمني (ت هـ)، تحقيق : د. هادي عطية مطر ، ط١ ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٨٤ .
اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م ، ط٤ .
http://thiqaruni.org/arabic/38.pdf
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، تحقيق أحمد الحوفي بدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط٢ ، ١٩٨٣ م . http://thiqaruni.org/arabic/35.pdf
١٣. مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ، ابن هشام الأنصاري (تـ٧٦١ هـ)، حققه وفصله وضبط غرائبه محمد محيي الدين عبد الحميد، د. ط ، مطبعة المدني، القاهرة،(د. ت.)
١٤. الموضح في شعر أبي الطيب تصنيف أبي زكريا بن علي التبريزي (ت٥٠٢هـ) الجزء الرابع دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان ، دار الشؤون الثقافية ،بغداد ٢٠٠٤م
١٥. همع الهوامع في شرح الجوامع ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) الأجزاء (٢- ٦) تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية، الكويت ، ١٩٨٠ م.